

الديني والسياسي في علاقة الإمبراطور قسطنطين بالديانة المسيحية

حفيظ اسليماني
باحث مغربي



قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

ملخص الدراسة:

كانت النظرة إلى المسيحيين في ظل الدولة الرومانية نظرة معادية، مما أدى إلى تعرض المسيحيين لأنواع تعذيب عديدة، وذلك على مدى ثلاثة قرون الأولى من عمر الدين المسيحي، ورغم صدور بعض مراسم التسامح معهم، مثل مرسوم جالينيوس، ورسوم جاليريوس، إلا أن هذين المرسومين لم يضعاً حدًا لوقف اضطهاد المسيحيين. لكن مع الإمبراطور قسطنطين، تم الاعتراف بالمسيحيين وبيانتهم وبحرمة أماكن العبادة الخاصة بهم، إذ يمكن القول إن التعايش السلمي الحقيقي مع المسيحيين يمثل مرسوم قسطنطين، ولولا اعتراف هذا الأخير بالمسيحيين لتغير مجرى التاريخ.

ولم يأتِ هذا التسامح من فراغ، وإنما هو راجع لأسباب دفعت الإمبراطور قسطنطين لفعل ذلك؛ ففي رواية يقال سبب ذلك ديني يتمثل في رؤيا رآها قسطنطين، وهناك من أرجع ذلك إلى سبب سياسي محض. وقد بينت من خلال هذه الدراسة صحة الرأي القائل بأن السبب السياسي هو الدافع لهذا الاعتراف بالمسيحيين، بغية ضمان استقرار الإمبراطورية الرومانية.

مقدمة:

لقد تعرض المسيحيون لأنواع كثيرة من التهيب والتعذيب والقتل من قبل حكام الإمبراطورية الرومانية، فكانوا يحرقونهم أو يلقونهم للحيوانات لتفترسهم في الاحتفالات والأعياد، ولم يعرف أتباع الديانة المسيحية الأمن والأمان في ظل الإمبراطورية الرومانية إلا مع قسطنطين، وهذا الأخير هو "ابن قسطنديوس كلوروس من زوجته هيلانة، ولد في نيش 270م"¹، وقد توفي والده سنة 306م في يورك من أعمال بريطانيا. فَبُعث ابنه قسطنطين بالنظام الجديد وأعلن نفسه قيصرًا"².

مراسم الاعتراف بالديانة المسيحية:

أ- مرسوم جالينيوس:

قبل قسطنطين أصدر جالينيوس مرسومًا للتسامح مع المسيحيين، وذلك "سنة 261م، ويعد أول مرسوم يقضي بالتسامح الديني اعترف فيه بأن المسيحية ديانة مسموح بها"³. وهذا نص المرسوم:

"لقد أصدرت أمري بإغلاق هباتي على كل العالم، وأن يبتعدوا عن أماكن العبادة، ولهذا يمكنكم استخدام هذه الصورة من أمري لكي لا يزعجكم أحد، وهذا الذي تستطيعون فعله الآن شرعًا قد سبق أن منحتة منذ زمن طويل، لذلك سيتولى تنفيذ أمري هذا الذي أعطيته أوريليوس كيرينيوس المتولي إدارة جميع الشؤون"⁴.

إلا أن هذا المرسوم لجالينيوس لم يُعطِ العناية البالغة في التنفيذ، وفي ذلك يقول عبد الحميد رأفت: "غير أن مرسوم جالينيوس لم يلقِ العناية أو الاهتمام، من جانب الدارسين، ما لقيه أمثاله من المراسيم التي صدرت بعد ذلك، بل إن هذا المرسوم لم يؤخذ مأخذ الجد من جانب حكام الولايات، مما يدل على عظم نفوذهم في هذه الفترة، ويعد هذا طبيعيًا في وقت هوت فيه الإمبراطورية إلى درجة كبيرة من الفوضى والانحلال ضاعت معها سلطة الأباطرة"⁵. وخير مثال على هذا الإهمال، والإهمال أن "ماكريوس والي مصر كان لا يزال صاحب

¹ - أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، نشر دار المكشوف ببيروت، ط1، 1955، ج1، ص 51

² - نفسه، ص 52

³ - عبد الحميد رأفت، الدولة والكنيسة، الناشر دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ج2، ص 47

⁴ - يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ترجمة القمص مرقس داود، الناشر مكتبة المحبة القاهرة، ط3، مارس 1998، ص ص 316-317

⁵ - عبد الحميد رأفت، الدولة والكنيسة، مرجع سابق، ص 48

نفوذ كبير، وقد تلكأ فى تنفيذ أوامر الإمبراطور، مما أدى إلى مقتل مارينوس أحد رجال قيسارية فلسطين الشهيرين".⁶

ب- مرسوم جاليريوس:

جاليريوس الذى يعد من أكثر المضطهدين للمسيحيين أصدر فى آخر حياته مرسومًا، وذلك "فى 30 أبريل 311م، ومات جاليريوس فى مايو بعد أن تمكن منه المرض"⁷ جاء فيه، حسب ما ذكر، يوسابيوس القيصري:

1 - بين الأمور الأخرى التى رتبناها للصالح العام، سبق أن أبدينا الرغبة لرد كل شيء إلى الحالة اللائقة بالقوانين القديمة ونظام الرومانيين العام، ولضمان رجوع المسيحيين الذين هجروا ديانة أجدادهم إلى حالة طيبة.

2 - لأنه قد استولى عليهم الكبرياء إلى حد ما، وغلب عليهم الغباء، فلم يتبعوا الفرائض القديمة التى سبق أن أسسها أجدادهم، بل أقاموا لأنفسهم قوانين حسب أهوائهم، واتبعوها، وهكذا اجتمعوا جماعات متفرقة فى أماكن مختلفة.

3 - ولما أصدرنا هذا أمرنا الملكى بضرورة رجوعهم إلى الفرائض التى أسسها الأقدمون خضع كثيرون أمام الخطر، ولكن عددًا كبيرًا منهم تضايقوا وتحملوا كل أنواع الموت.

4 - ونظرًا لأن كثيرين استمروا فى حماقاتهم، ونحن نلاحظ أنهم لا يقدمون للآلهة السماوية العبادة اللائقة ولا يقدمون الإكرام لإله المسيحيين، فمراعاة لمحبتنا البشرية، وعادتنا الثابتة، التى اعتدنا بموجبها أن نصبح عن الجميع، اعتزمنا أن يشمل صفحنا هذه الأمور أيضًا بكل سرور، حتى يرجعوا إلى مسيحيتهم مرة أخرى، ويعيدوا بناء الأماكن التى اعتادوا الاجتماع فيها، شرط ألا يقوموا بأى إجراء ضد النظام، وفى رسالة أخرى سوف نبين للولاية ما يجب عليهم اتباعه".⁸

إلا أن هذين المرسومين لم يحدا من عملية اضطهاد المسيحيين، إلى أن جاء قسطنطين الذى كان له الفضل فى وقف عملية اضطهاد المسيحيين.

⁶ - يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، مصدر سابق، ص 319

⁷ - عبد الحميد رأفت، الدولة والكنيسة، مرجع سابق، ص 77

⁸ - يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، مصدر سابق، ص 374-375

العلامة التي رآها هي رمز النصر على الموت التي أحرزها في الماضي لما كان على الأرض، ثم علموه أسباب مجيئه وفسروا له السر الحقيقي للتجسد، وهكذا تلقى التعاليم اللازمة عن هذه الأمور، وتأثر جداً من الظهور الإلهي الذي رآه بعينه".¹⁴

إن تحول قسطنطين بناء على هذه الرواية راجع إلى رؤيته علامة الصليب ثم رؤيته المسيح ابن الله، إلا أن هذا الحدث لم يقطع بصحته من قبل المؤرخين؛ فهذا المؤرخ المسيحي يوحنا موسهيم يقول: "لماذا لم يستند يوسابيوس إلا إلى شهادة الإمبراطور دون ذكر شهادة أحد من الألوفا الذين كان ينبغي أن يكونوا قد شاهدوا ذلك؟ ولماذا لم يقل إن الخبر شائع في العالم، واعتمد على شهادة كثيرين عوضاً عن مجرد شهادة قسطنطين بالانفراد معه".¹⁵

أما المؤرخ جونز، فيقول: "إن ما يحتمل أن يكون قسطنطين قد رآه ليس سوى ظاهرة نادرة لهالة طبيعية مشابهة لقوس قزح نتجت عن سقوط - لا المطر - ولكن كرات الثلج خلال أشعة الشمس، وهي عادة تأخذ شكل شمس مصطنعة أو حلقات الضوء تحيط بالشمس، وربما تكون الفترة التي تبتدى فيها ذلك قصيرة، والعرض غير مكتمل المشاهدة، ولكنه كان بالنسبة لخيال قسطنطين المكدود المنهك ذا دلالة كبيرة، فهي الشمس التي يقدها، وفي ساعة من ساعات احتياجه بعثت إليه الشمس بعلامة وكانت هذه العلامة الصليب شعار المسيحيين".¹⁶

من الواضح أن قصة اعتناق قسطنطين للمسيحية قصة فيها نظر، بل إنها لم تقع أصلاً وإنما هي من باب الأساطير، وسيأتي بعد قليل بيان السبب الرئيس في تعاطف قسطنطين مع المسيحيين.

التشابه بين رواية بولس ورواية قسطنطين حول رؤية المسيح:

- جاء في أعمال الرسل: "فَحَدَّثَ لِي وَأَنَا ذَاهِبٌ وَمُنْقَرَّبٌ إِلَى دِمَشْقَ أَنَّهُ نَحَوَ نِصْفِ النَّهَارِ بَغْتَةً أُبْرَقَ حَوْلِي مِنَ السَّمَاءِ نُورٌ عَظِيمٌ. 7 فَسَقَطْتُ عَلَى الْأَرْضِ وَسَمِعْتُ صَوْتًا قَائِلًا لِي: 8 شَاوُلُ شَاوُلُ لِمَاذَا تَضْطَهُدُنِي؟ فَأَجَبْتُ: مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟ فَقَالَ لِي: أَنَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهُدُهُ. 9 وَالَّذِينَ كَانُوا مَعِيَ نَظَرُوا النُّورَ وَارْتَعَبُوا وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَ الَّذِي كَلَّمَنِي. 10 فَقُلْتُ: مَاذَا أَفْعَلُ يَا رَبُّ؟ فَقَالَ لِي الرَّبُّ: قُمْ وَادْهَبْ إِلَى

¹⁴ - نفسه، ص 229

¹⁵ - عبد الحميد رأفت، الدولة والكنيسة، مرجع سابق، ص 103

¹⁶ - نفسه، ص 103

دِمَشَقَ وَهُنَاكَ يُقَالُ لَكَ عَنْ جَمِيعِ مَا تَرْتَبُّ لَكَ أَنْ تَفْعَلْ. 11 وَإِذْ كُنْتُ لَا أَبْصِرُ مِنْ أَجْلِ بَهَاءِ ذَلِكَ النُّورِ اقْتَادَنِي
بِيَدِي الَّذِينَ كَانُوا مَعِي فَجِئْتُ إِلَى دِمَشَقَ".¹⁷

يقول بولس، إنه عند الظهر أبرق حوله نور من السماء، وأن الذين كانوا معه شاهدوا الحدث.

والشأن نفسه لدى قسطنطين إذ قال إنه حوالي الظهر رأى بعينه صليبا من نور في السماء فوق الشمس،
وأمام هذه الرؤيا ذهل هو نفسه، وكذلك كل جيشه الذي رافقه في هذه الحملة وشهد المعجزة.

- ذكر بولس أن الله سينقذه من الشعب (اليهود) ومن الأمم وهذا نص الرواية: "قُمْ وَقِفْ عَلَى رِجْلَيْكَ لِأَنِّي
لِهَذَا ظَهَرْتُ لَكَ لِأَنْتَجِبَكَ خَادِمًا وَشَاهِدًا بِمَا رَأَيْتَ وَبِمَا سَأْظَهَرُ لَكَ بِهِ 17 مُنْقَذًا إِيَّاكَ مِنَ الشَّعْبِ وَمِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ
أَنَا الْآنَ أُرْسِلُكَ إِلَيْهِمْ".¹⁸

والشأن نفسه عند قسطنطين، فقد جاء في رواية يوسابيوس: أقبل الليل فجأة ثم ظهر له في نومه "مسيح
الله" بالعلامة التي رآها في السماء نفسها، وأمره بأن يصنع مثالا لهذه العلامة التي رآها في السماء، وأن
يستعملها وقاية له في كل حروبه مع أعدائه.

يتضح إذن، تشابه رواية كل من بولس وقسطنطين، وهذا أمر مشكوك فيه، لأن رواية اعتناق بولس
للمسيحية محط نقد من قبل الدراسين، نظرا لاختلافات الروايات الثلاث بعضها عن بعض. وعن قسطنطين قال
فيليب: "يرجح أن تكون قصة اعتناق قسطنطين للمسيحية من باب الأساطير".¹⁹

يقول ول ديورانت: "ظل قسطنطين يستخدم ألفاظاً توحيدية يستطيع أن يقبلها كل وثني؛ وقام خلال السنين
الأولى من سلطانه المفرد في صبر وأناة بجميع المراسيم التي يتطلبها منه منصب الكاهن الأكبر، والتي تحتمها
الطقوس التقليدية، وجدد بناء الهياكل الوثنية، وأمر بممارسة أساليب العرافة، واستخدم في تدشين القسطنطينية
شعائر وثنية ومسيحية معاً، واستعمل رقى سحرية لحماية المحاصيل وشفاء الأمراض".²⁰ ولو كان قسطنطين،
بناء على هذا القول، مسيحياً حقاً لما قام بالشعائر الوثنية.

¹⁷- أعمال الرسل 11-6/22

¹⁸- أعمال الرسل 16-17

¹⁹- فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة: الدكتور جورج حداد، عبد الكريم رافق، الناشر دار الثقافة - بيروت، ج1، ص 387

²⁰- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، نشر دار الجيل بيروت، ج3 من 3، ص 378-379

يناسب نظام الملكية، ولعل هذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة، يصبح أداة لتهدة البلاد وتوحيدها وحكمها".²³

فقسطنطين لم يعتنق المسيحية لسبب ديني متمثل في الرؤيا، وإنما يرجع ذلك إلى سبب سياسي محض، الهدف منه ضمان استقرار الإمبراطورية. يقول عبد الحميد رأفت: "لقد استطاع قسطنطين أن يأسر الكنيسة بما أغدقه عليها من الخيرات، وبما أولها من نعم، فكسب ولاء رجالاتها وتأييدهم، وكان الإمبراطور في مسيس الحاجة لمدد هؤلاء القوم يعتمد عليهم في تسكين خواطر رعاياهم لما يعلمه عن نفوذهم الكبير عليهم. لقد غدا رجال الكنيسة في حكومة قسطنطين "شرطة نبيلة" أمل فيها الإمبراطور أن تحفظ بالهدوء الأمن، وتنتشر بالسكينة السلام. ويقول سبأين لقد كان السبب الحقيقي لاعتراف قسطنطين للكنيسة بمركز قانوني خاص هو ما تخيله عن قدرتها على مد تأييدها للدولة".²⁴

ويتضح الأمر أكثر في كون السبب السياسي هو الدافع الوحيد في اعتناق قسطنطين المسيحية من تدخله في وقف الصراع بين المسيحيين حفاظًا على استقرار الإمبراطورية؛ فلما وقع الخلاف بين المسيحيين حول المسيح هل هو الله؟ وهل هو الخالق أم مخلوق؛ فقد كان القس الليبي أريوس أنكر لاهوت المسيح واعتبر المسيح مخلوقًا وليس خالقًا، وهذا هو سبب انعقاد مجمع نيقية سنة 325م. يقول منسى يوحنا: مجمع نيقية، ويسمى المجمع المسكوني الأول، وكان الداعي لانعقاده انتشار بدعة أريوس الهرطوقي واضطراب الكنيسة وانزعاج المؤمنين بسببها فكتب القديس ألكسندروس بابا الإسكندرية إلى الملك قسطنطين الكبير، طالبًا منه عقد مجمع مسكوني ... وذهب أوسوريوس أسقف قرطبة إلى الملك وطلب منه نفس الطلب فقبل قسطنطين بذلك، وكتب منشورًا يستدعي فيه أساقفة المملكة للاجتماع في مدينة نيقية.²⁵ في هذا المجمع تمت صياغة قانون الإيمان المسيحي تحت سلطة الإمبراطور قسطنطين، يقول أسد رستم: "وأيد قسطنطين هذه القرارات وأمر بوجوب تنفيذها والخضوع لها ونفى من الأساقفة كل من امتنع عن الموافقة عليها. ونفى الأب أريوس أيضًا".²⁶

²³- ول ديورانت، ص 388

²⁴- عبد الحميد رأفت، الدولة والكنيسة، مرجع سابق، ص 134

²⁵- تاريخ الكنيسة القبطية، الشماس منسى يوحنا، نشر مطبعة اليقظة مصر، ط1، 1924، ص 250

²⁶- أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، مرجع سابق، ج1، ص 58

خاتمة:

انطلاقاً مما سبق الحديث عنه أخلص إلى أن الإمبراطور قسطنطين قد غير موقف الإمبراطورية من المسيحيين، من القمع والقتل إلى الاعتراف بهم والتسامح معهم، بل اعتناق الإمبراطور لديانتهم، إلا أن التغيير في الموقف لم يبين على ما هو ديني، وإنما كان الدين مجرد وسيلة لضمان الاستقرار التام للإمبراطورية، لذلك أرجع غير واحد أن التسامح مع المسيحيين والاعتراف بهم إلى ما هو سياسي وليس ديني.

المصادر والمراجع:

- الكتاب المقدس
- أحمد علي عجيبة، تأثر المسيحية بالأديان الوضعية، دار الافاق العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2006
- أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، نشر دار المكشوف بيروت، ط1، 1955
- برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثاني: الفلسفة الكاثوليكية، ترجمة كي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2010
- رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، الناشر دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.
- منسى يوحنا، تاريخ الكنيسة القبطية، نشر مطبعة اليقظة مصر، ط1، 1924
- فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة: الدكتور جورج حداد، عبد الكريم رافق، الناشر دار الثقافة – بيروت.
- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، نشر دار الجبل بيروت.
- يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ترجمة القمص مرقس داود، الناشر مكتبة المحبة القاهرة، ط3، مارس 1998



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com